

### حوار مع جريدة الوسط (3)

السيد يوسف الرفاعي: زيارة القبور عندنا مشروعة وقلة من علماء السلف يرفضونها

كتب: مهدي عبدالستار

بعد أن كثر الجدل بشأن الفكر الصوفي والصوفية في الكويت، كثير من الشبهات أثيرت حول ما يحمله هذا الفكر من مضامين عقائدية وثقافية وفكرية، وطقوس يراها البعض أنها «كفر بواح»، وخروج عن الدين، بينما يراها البعض الآخر أنها جزء من الدين وأنها لا تخرج معتقها أو من يمارسها عن دائرة الإسلام... الاستغاثة بغير الله، الطواف بالقبور، ضرب الشيش وترويض الحيات، قصة برقمة البلبل وعلاقتها بالرفاعية، أقوال ابن عربي في إبليس، ودور الصوفية في إهمال العلم الشرعي، والولاية والكشف... محاور محاكمتنا لشيخ الطريقة الرفاعية السيد يوسف هاشم الرفاعي، فإلى التفاصيل:

{ فضيلة السيد هناك اتهام آخر للمنهج الصوفي، وهو أن الصوفية يكرسون منهج تعطيل فريضة الجهاد وإهمال العلوم الشرعية بدعوى الزهد وعدم الركون إلى المعاش وحتى ترك الزواج؟ فما ردكم؟

- هذه التهمة أيضا غير صحيحة لأننا عندما نقرأ كتاب «النبلاء» للذهبي وكتب التراجم الأخرى مثل كتاب «طبقات الشافعية» و «طبقات الحنابلة» وخاصة كتاب «البطولة والفداء عند الصوفية» لأسعد الخطيب وغيرها من الكتب نلاحظ ثناء على كثير من الصوفية، وأنهم كانوا رهبانا في الليل فرسانا في النهار وإذا وجد أناس أفراد غلب عليهم الجانب الروحاني فحصل منهم نوع من الخلوة والانعزال فهذا تصرف فردي، فنحن الآن نحكم على الشيوعية بنظرياتها وكتبها وأيديولوجياتها وبمثله نقول للمستشرقين لا تحكموا على الإسلام بسلوك المسلمين، كذلك يجب أن يحكم على الصوفية بما في كتبهم، فهل في كتبهم من قال لا تجاهدوا؟ أما إذا وجد منهم من لم يجاهد فهناك من العلماء من لم يجاهد، ثم هناك من العلماء من أفتى بالباطل فهل نترك الشرع لأن العالم الفلاني أفتى بالباطل في الشرع؟ أو نقول إن الشرع فيه خطأ لفتوى أحد المفتين؟

أريد أن أقول: لا يوجد في كتب التصوف ما يعفي من فريضة الجهاد بل إن قدوتهم أهل الصفة كانوا رهبانا في الليل وفرسانا في النهار.. والإنسان مادام يريد وجه الله فليس هناك مكان أفضل من ميدان الشهادة للتقرب من الله سبحانه وتعالى.

فإذا كان هذا الاتهام غير صحيح علما بأن عبد الله بن المبارك كان له كتاب في الزهد والإمام أحمد بن حنبل له أيضا كتاب في الزهد، ومع ذلك لم يؤثر عنهما ولا عن الصوفية التخلف عن الجهاد، بل إن تلاميذ السيد الرفاعي والشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبو الحسن الشاذلي هم الذين وقفوا في وجه الصليبيين والتتار وهم الذين نزلوهم في ميادين القتال فالمناقشات حول اتهام الصوفية بتعطيل العمل في الجهاد غير صحيح، كما أننا لندعو إلى ترك السعي على المعاش أو عدم الزواج وأنا محسوب على التصوف ولي تجارة، وأبيع وأشتري وتزوجت أكثر من مرة وأحث أصحابي على الزواج ونقول لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وآله «شرار أمتي عزابها» وإذا رأينا إنسانا لا يعمل نحته على العمل ونقول له: إن الله لا يحب العبد البطال، ولذلك لا ندعو لما نسب إلينا من هذه التهم ويأتينا إخواننا من أنحاء العالم الإسلامي ونساعدهم على أن يجدوا أعمالا... أو نقيم معهم مشاريع خيرية في بلادهم كالمساجد والمدارس والمستشفيات ودور الأيتام وغيرها وحيث تفتح لهم أبواب العلم والعمل وحركة الحياة الناشطة.

### الخلوة للتخلية

{ لكن هناك من يطلب من مرديه إذا أراد أن يلتحق بالطريقة أن يذهب في خلوة قد تطول مدتها أو تقصر ويعتزل الناس والمجتمع؟

- صحيح هناك بعض الطرق ترى أن الإنسان في بداية الطريق يحتاج إلى خلوة مع نفسه لأن هذا الإنسان كان غافلا وكان جاهلا، فيطلبون منه اعتزال الناس أسبوعا أو أسبوعين أو ثلاثة لمراجعة نفسه ومحاسبتها واعتزال رفقاء السوء وتغيير البيئة، ولا بد له من أن يجلس خاليا بنفسه ليكثر من الاستغفار والذكر والصلاة لأداء الفوائت، وهذه خلوة يأمر بها بعض الشيوخ لمن كان له سابقة في الابتعاد عن الشرع وخاصة من كان مبتلى بالكبائر من الذنوب فيطلبون منه نوعا من الحمية الدينية، ونوعا من الخلوة للمراجعة والمحاسبة على ما فات، والتفكير في حقوق العباد وإرجاعها لأصحابها، وقد تصل هذه لفترة شهر اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وآله عندما كان يخلو بنفسه في غار حراء فكان يتعبد الله في الليالي ذوات العدد، فهذه فترة للنقاء يغير فيها المرء سلوكه، مثل غير

المسلمين ممن يريد أن يدخل الإسلام نأمره بأن يترك جماعته وبيئته ويغير بعض الأمور في بدنه كالختان إذا لم يكن مختننا ويغتسل، ونقول له تعال واجلس في المسجد يوماً أو يومين لتعلم الصلاة فهذا نوع من الحضانة للتربية، وهذه الفترة ليست طويلة ولا تفرض على كل واحد ولا يلجأ إليها كل الشيوخ، وكم جاءت الوفود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فاستبقاهم حتى يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويعيدهم معلمين لأقوامهم.

### صلاة الجماعة

{ أليس في الأمر بالخلوة على هذه الصورة مضيعة لصلاة الجمعة والجماعة التي أمرنا بالالتزام بها؟  
- يأتي ليصلي الجمعة ويشهد الجماعات ثم يرجع إلى خلوته وحكمه حكم المعتكف تماماً والاعتكاف سنة في رمضان ومستحب في غيره.

### تعظيم القبور

{ لكن فضيلة السيد شاهدا وشاهد الناس في العصور المتأخرة اهتمام الطرق الصوفية بدعوة الناس إلى تعظيم القبور والبناء عليها والتعلق بالأولياء وإحياء مظاهر الشرك في الأمة.. فأين انتم من هذا الفساد والشرك من أتباع الطرق؟  
- هناك فهم خاطئ لعلاقة الأحياء بالأموات، فجمهور أهل السنة والجماعة لهم رأي في هذا، وأقلية من علماء السلف لهم رأي آخر، وإن كانوا هم أصحاب الصوت العالي. والحق مع رأي الجمهور، فأغلب أهل العلم يرون أن الإنسان إذا مات لم تنقطع صلته بالعلم الدنيوي ولم تنته حاجته لإخوانه المؤمنين، ولم تنته العلاقة مع الله سبحانه وتعالى خاصة إن كان صالحاً وله مكانة عند الله فإن هذه المكانة لا تنتهي بموته. ويرون أن زيارة الأموات مستحبة، وزيارة خواص الأموات بشكل عام مستحبة بمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وآله قال: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»، وكان يزور البقيع، فزيارة القبور في حد ذاتها لا تعتبر شركاً، وورد كثير من الأقوال في فضيلة زيارة قبر الوالدين والدعاء لهما. والأموات عندنا نوعان: منهم من تزوره لتدعو له فهو محتاج إليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... أو ولد صالح يدعو له...» الخ، وقد مر الرسول صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير وجاء بجريدة فشققها نصفين ووضعها على القبرين وقال: لعل الله يرحمهما ما لم يببسا أي بسبب تسبيحهما»، وورد عنه صلى الله عليه وسلم وآله

أنه كان يدعو للموتى إذا مر بالقبور، ومن الأموات من يكون صالحاً، إما نبي وإما ولي. ومن الثابت عندنا أن زيارة قبر النبي وآله مستحبة وقد ثبت في تفسير «ابن كثير» الذي يعد من أئمة السلفية، عند تفسير قوله تعالى «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا»، أن الإمام العتبي كان جالساً بجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وجاء أعرابي فسلم على الرسول وذكر الآية وأتم «وإني جئتكم مستشفعاً بك إلى الله»، فأخذت الإمام العتبي سنة من النوم ورأى النبي في منامه يقول له أدرك الأعرابي وبشره بأن الله قد غفر له، فذهب إليه العتبي وأخبره. وما زالت مشروعية زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ثابتة، وكذلك السلام على صاحبيه أبي بكر وعمر، وفي كتاب «التوسل والوسيلة» لابن تيمية أن عبد الله بن عمر كان إذا سافر ورجع إلى المدينة مر على قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وآله فسلم عليه وسلم على أبيه عمر وعلى أبي بكر، وهذه الزيارة مستمرة عند عامة المسلمين، وما كان الصحابة والسلف الصالح ليفعلوا الشرك ولا علماء المسلمين عبر الأجيال حتى اليوم وما غابت عنهم الأحاديث التي يتمسك بها السلفية التي أولوها على غير ما فهمه السلف الصالح، كما أننا نعتقد أن هذه الأماكن المدفون فيها الأنبياء والأولياء حري بالدعاء فيها أن يستجاب، وللإمام الشوكاني قول يبين فيه أن من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء مرآقد الصالحين وقد ذكر ذلك في كتاب «تحفة الذاكرين».

### تعريف الصالحين

{ لكن من أولئك الصالحون الذين يستجاب عند قبورهم الدعاء؟

- نتكلم الآن عن الأنبياء والصحابة والأولياء المنفق عليهم لا المشكوك فيهم، كقبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وأهل البقيع وهؤلاء لا خلاف على زيارتهم بل هناك اتفاق وإجماع ماعدا مخالفة بعض إخواننا من السلفيين المتشددين وسوف يجرنا ذلك إلى بحث مسألة التوسل والوسيلة، وقد وضع «ابن تيمية» كتاب «قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة» أقر فيها مبدأ التوسل ووضع له قواعد وشروط، ولم ينكره كلية بل وضع له ضوابط. والتوسل ينحصر في ثلاثة أشياء: التوسل بالعمل، والتوسل بالحي، والتوسل بالميت، فالتوسل بالعمل مشروع كأن تتوسل إلى الله بصالح أعمالك كما في حديث الغار، والتوسل بالحي مجمع عليه لأن الصحابة كانوا يتوسلون به صلى الله عليه وسلم وآله بقولهم «ادع لنا يا رسول الله، استغفر لنا يا رسول الله» وهكذا، وقد ذم الله

المنافقين الذين يستكبرون عن استغفار الرسول لهم وأمر الله رسوله أن يصلي على المؤمنين أي يدعو لهم، والرسول قال لعمر بن الخطاب: «أشركنا في دعائك يا أخي» ولا يزال الناس يوصي بعضهم بعضا بالدعاء، وهذا التوسل بالحي الصالح، بقي التوسل بالميت، ونسأل هل التوسل بالحي ينفع لذاته أم لقربه من الله؟ لو قلنا لذاته لأشركنا، لكننا نقول نفعنا قربه من الله وهذا القرب للرجل الصالح لم ينته بموته كأن أقول «اللهم إني أسألك برضائك عن فلان أن تغفر لي» وهذا ما نقصده بالجاء أو القرب من الله الذي لم ينقطع بالموت، كأن أقول: اللهم إني أسألك بجاء رسولك أن تغفر لي ، وعندي الأمران سواء .

<http://www.alwasat.com.kw/Default.aspx?MgDid=12079&pageId=85>